الفصل الثانى...

الأدب العربى فى العصر الحديث
"بداية الانطلاق"

obeikandl.com

obeikandl.com

● بداية العصر الحديث :

يبدأ العصر الحديث بمجيء الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨م على أرجح الأقوال [١] وينتهى بنهايات القرن التاسع عشر الميلادى [٢]

ويمكن أن تقسم هذه الفترة الزمنية الى مراحل ثلاثة متمايزة [٣] :

- **المرحلة الأولى** :

وتبدأ من بمجيء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م الى ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٢م ، بما فيها ولاية محمد على باشا ، وعباس ، وسعيد ٠

وفى هذه المرحلة ظل الأدب يحتذى نماذجه من العصر التركى ؛ لأنه ظل ثمرة من ثمار قرائح أولئك الشيوخ الذين تربوا على هذه الثقافة التقليدية فى أنماطها الشاحبة ، ولم تستطع شرارة التغيير التى أحدثها عطاء الحملة الفرنسية أن تمس مناطق الخلق فى أعماق هؤلاء ؛ لأن هذا العطاءَ نفسه كان محصوراً فى الجانب العلمى دون الجانب الأدبى [٤] ٠

- **المرحلة الثانية** :

وتبدأ من ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٢م الى الثورة العرابية ١٨٨٢م ٠

وقد تردد الشعر بين التقليد والتجديد ، فقد كانت النماذج التقليدية ما تزال قابضة على الأعناق ، وإن بدا فيها وميض خافت من التجديد يأخذ طريقه الى الظهور بفعل الإطلال البادئ على ثقافة الغرب ، وما تُرجم منها ، وهو قليل فى هذه المرحلة، فهذه المرحلة بشكل أو بآخر كانت مختلفة عن المرحلة السابقة من حيث الشكل والمضمون .

---

[١] ـ تاريخ الأدب الحديث ، د٠ حامد حفنى داود / ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٧م ٠

[٢] ـ عن اللغة والأدب والنقد ، د٠ محمد أحمد العزب / ١١٠ ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٨٠م ٠

[٣] ـ أنظر المصدر السابق / ١١٠ : ١١٥ ٠

[٤] ـ راجع : فصول فى الشعر ونقده ، د٠ شوقى ضيف / ٢٥٨ / ٢٥٩ ٠

obeikandl.com

- المرحلة الثالثة :

وتبدأ هذه المرحلة من الثورة العرابية ١٨٨٢م الى أوائل القرن العشرين ، وكأنما كان القدر يدخر للشعب العربى الحديث فى هذه المرحلة ، هذه العبقرية المتمردة ، عبقرية البارودى الذى فجّر حركة البعث ، وأصّل بها لبداية تاريخ المدارس الشعرية فى الأدب العربى الحديث ٠

وهذا يعنى أن الشعر قبل البارودى ظل مترديا فى الأخاديد والخنادق التى كان يتعثر فيها فى العصر التركى ، مما جعل البحث عن شاعر تقرأ شعره ، فتعجب به ضرباً من العبث ، ولكن الشعراء فى عصر النهضة الحديثة " تجاوزا بأذواقهم النماذج المأثورة عن العصرين : العثمانى والمملوكى ، والتفتوا الى أزهى عصور الشعر العربى القديم ، يقرأون ويستوعبون ويتمثلون فى نتاجهم " [١]

****

● حال البلاد فى مطلع العصر الحديث :

فى عام ١٨٨٢م احتلت القوات البريطانية أرض مصر، وأخذت تُقحم نفسها فى كل شىء من أمور البلاد ، فعزلت "إسماعيل" وولت "توفيق" الذى أسلم إليهم الأمور صاغراً ، فكان بذلك مثالاً للضعف والاستسلام ٠

وكان من أبرز المعالم التى تشير الى رفض الاستعمار للحرية والمنادين بها : نفيه جمال الدين الأفغانى ؛ لأنه أخذ يندد بوجود المحتل الأجنبى فى البلاد ، كما عزل الإمام محمد عبده من وظيفته ، وأمره بالبقاء فى قريته [٢]

---

[١] ـ أدباؤنا وقضية التغريب ، د٠ أحمد خليل / ٥٧ بتصرف يسير ٠
[٢] ـ انظر : تاريخ العصر الحديث ، د٠ محمد صبرى / ١٨٧ ، الطبعة الأولى ١٩٢٦م ٠

obeikandl.com

كذلك نجد أن وزارة "مصطفى رياض"قد تولت الحكم فى ذلك الوقت ، وكان على رأس وزارة الحربية فيها رجل شركسى عُرف بالجهل والاستبداد والتعصب لبنى جنسه ، وهو" عثمان رفقى "مما أشعل الوعى الوطنى فى البلاد ، وكانت ثورة عرابى قمة التعبير الصادق عنه ٠

لأجل ذلك، كثر الحديث عن الظلم والظالمين. فى هذه الفترة. كما ظهرت الدعوة الى وجوب محاكمة السلطان، والدعوة الى النظام النيابى ، والعدالة الاجتماعية ، والمناداة بالحد من التغلغل الأجنبى فى البلاد ، والدعوة الى التخلص من النظام الملكى ، وإقرار النظام الجمهورى [١]

ولقد ألحت هذه المفاهيم والأحداث على مشاعر الشعراء إلحاحاً قوياً ، مما جعل ألسنتهم تنطلق بالأشعار الوطنية التى تندد بالمحتل حيناً وتسخر منه حيناً آخر ٠

وقد كانت الظروف مهيأة لذلك ، حيث أتاح المحتل للصحافة حرية كبيرة للتعبير ، ولم يُبد ممانعة فى نطق الشعراء بما يَعتمل فى نفوسهم حتى ولو كانت ضده فى بعض الأحيان ، ولكنه فى بعض الأحيان كان يضيق ذرعاً بذلك ، فيضطر الى التضييق على الصحافة حيناً ، ومصادرة بعض الصحف حيناً آخر ٠

ومع ذلك ، فقد كان بعض الشعراء لا يعدمون وسيلة للتعبير عما يَعتمل فى نفوسهم ، فكانوا يلوذون بفن السخرية ؛ ليعبروا. من خلاله. عن قضاياهم ، ومشاكلهم التى لم يتمكنوا من التعبير عنها بطريق صريح ٠

---

[١] ـ راجع المصدر السابق نفسه / ٤١ ، ٤٣ ٠

والحق :

أننا عندما ننظر الى مطلع القرن العشرين ، نجد أنه كان غاصّاً بالفتن والثورات ، والاضطرابات المختلفة فى اتجاهاتها وغاياتها ؛ لأن تلك الفترة كانت فترة غليان سياسى ، وثورة شاملة على كل ميادين الحياة ، وهذا ما يجعله ثمرة طبيعية للأحداث التى وقعت فى أعقاب القرن التاسع عشر الميلادى ٠

والناظر ، يرى أنه فى مطالع هذا القرن وقعت كثير من الأحداث السياسية المهمة : مثل : حادثة دنشواى ١٩٠٦م ، والتى هَيّجت المشاعر والخواطر ، وأجّجت نيران الحنق على المحتلين ، وأخذ الشعراء الوطنيون ينظمون القصائد الحامية فى التشهير بالإنجليز الغاصبين ٠

ومع ذلك " لم يرفع الخديوى ـ عباس حلمى الثانى. إصبعاً ضد مذبحة دنشواى ، وأحكامها الجائرة " [١]

وفى عام ١٩٠٧م عُزل اللورد كرومر من منصبه ، ففرح الوطنيون بذلك فرحاً عظيماً نظراً لعدم توافق سياسته مع ما تصبو إليه مصالح المصريين : من الرغبة فى الاستقلال ، والتمتع بالحكم النيابى ، ونشر التعليم بجميع أنواعه بين أبناء البلاد ، ونيل حرية الصحافة والخطابة ، وغيرها من أنواع الحريات [٢] ٠

ثم ما حدث بعد ذلك من موت للزعيم الوطنى مصطفى كامل عام ١٩٠٧م ، ثم نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨) ثم ثورة ١٩١٩م التى كانت حداً فاصلاً بين عصرين : عصر الاحتلال ثم الحماية ، وفى هذا العصر كانت للإنجليز

---

[١] ـ ٥أيام هزت مصر ، محسن محمد / مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٨٤م

[٢] ـ راجع مجلة الرسالة ، العدد ٨٦٣ / ٧٨ ، السنة ١٨ ، ١٦ يناير ١٩٥٠م ٠

obeikandl.com

الكلمة العليا فى البلاد ، وكان الموظفون البريطانيون يتمتعون بسلطان مُطلق فى كل مرافق البلاد ومصالحها ٠

ثم ما تبع ذلك من تصريح الثامن والعشرين من فبراير ١٩٢٢م، وإلغاء إعلان الحماية عن مصر٠

ثم المناداة بالسلطان فؤاد ملكاً لمصر ، وتأسيس حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٣م ، ثم وفاة الزعيم سعد زغلول ، ثم معاهدة ١٩٣٦م بين مصر وانجلترا والتى نصّت على إنهاء احتلال مصر عسكرياً بالقوات البريطانية ، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ثم حرب فلسطين ١٩٤٨م ٠

ولقد تركت هذه الأحداث بصماتها على أبناء الشعب المصرى . ومنهم الشعراء . إيجاباً وسلباً [١] ٠

ثم إن بواكير اليقظة العربية ظهر صداها فى أثناء هذه الفترة ، فالاستعمار لا يزال جاسماً فوق صدر الأمة العربية، وقد سلب حريتها، وحطم مواردها المختلفة، وأرهق عامة الشعب بضرائبه وويلاته الفادحة، فى حين أن الأمم من حولها تتصارع نحو التقدم والارتقاء فى شتى المجالات٠

وقد كان هذا سبباً قوياً دفع الأمة العربية الى أن تستجمع أمرها ، وتوحد كلمتها وعزمها على النهوض والتقدم ، على الرغم من كل القيود والأغلال التى أرهقت قواها ٠

---

[١] ـ راجع ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومى من ١٩١٤م الى ١٩٢١م ، عبد الرحمن الرافعى / ٣٣٢ الطبعة الرابعة ، دار المعارف ٠

obeikandl.com

ومن هنا :

بدأت الأمة العربية تصل أحبالها بأحبال الثقافة الحديثة ، وتأخذ منها بالقدر الذى يتفق مع شخصيتها، فانتشر التعليم وكثُر روّاده ونشطت حركة الصحافة، واهتمت بالنواحى السياسية ، والاجتماعية، فضلاً عن الناحية الأدبية ، فكان لها بذلك الفضل الكبير فى إيقاظ مشاعر الأمة العربية ٠

ولعلك عزيزى الطالب ـ بعد هذه الإطلالة ـ تكون قد وقفت معى على أهم العوامل والأسباب الفاعلة فى نهضتنا الأدبية الحديثة ٠

والتى سوف نفصل القول عنها فى الصفحات القادمة إن شاء اللّه تعالى ٠

****

● عوامل اليقظة الحديثة ؛

قد يقول قائل عن هذا السرد الذى سبق أن ذكرناه : ما فائدة هذا بالنسبة للأدب وتطوره الحديث ، خاصة وأن الاهتمام منصبٌ على الجيش ، وأن النهضة علمية فى كل مجالاتها ٠

ونحن لا نملك إزاء ذلك إلاّ أن نقول : إنه وإن كانت الاهتمامات السابقة تتركز فى النواحى العلمية والحربية ، إلاّ أن الأدب تأثر بالنشاط العلمى بشكل كبير، خاصة ما يتصل باللغة التى تهتز وتتفاعل وتنشط لتستوعب حركة الترجمة والتعريب ، فقد أفادت اللغة من دخول عدد كبير من المصطلحات والمفردات الجديدة التى اكتسبتها من روح العصر ، وهيأتها للتعبير عنه ، كما أن العقلية العربية بدأت التعرف على العقلية الأوربية وكان لهذا الاحتكاك دور كبير فى التغيير الحضارى الشامل ٠

obeikandl.com

ولقد كانت محصلة ذلك : ازدياد الوعى العربى بدرجة كبيرة ، لدرجة أن النصف الثانى من القرن العشرين يُعد بحق عصر ازدهار النهضة العربية الصاعدة ، فقد بدأت آثار اليقظة تظهر فى فكر الجيل الجديد الذى تربى فى ظل النهضة ، ونهل من معينها العذب ٠

وإليك الآن أهم عوامل النهضة الأوربية الحديثة :

١- <u>الطباعة والنشر للتراث القديم</u> :

مما لاشك فيه أن الطباعة أساس مهم من أسس النهضة الثَّقافية الأدبية ، نتيجة لما تخرجه للناس من درر التراث القديم ، وشوامخ المؤلفات الحديثة ، فلا أدب إلاّ عن ثقافة ، ولا ثقافة إلاّ من كتاب ، ولا كتاب إلاّ من مطبعة ٠

وقد كانت حركة النساخين قبل ظهور الطباعة لا تكاد تفى بالغرض العاجل والشامل فى حركة الوعى ؛ لقلة ما يتداول بين الناس من كتب النساخين.

ومما يُذكر أن العالم بأسره ظل يجهل حرفة الطباعة مدة طويلة ، حيث كان يعتمد على الوراقين حتى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، ففيه توصل الصينيون الى طبع الحروف مفرقة ، ثم جاء العالم الألمانى(جوتنبرج) فتوصل الى تجميع الحروف فى كلمات بطريق الحفر، وذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى.

وبعد هذا التاريخ ، أخذت الطباعة تزدهر ، ويزدهر معها الكتاب ٠

وكانت "مطبعة بولاق" (مطبعة الطوبجية) بطرة هى أول مطبعة فى مصر، وقد أُنشئت سنة ١٨٢١م،ثم توالت بعدها المطابع، فظهرت المطبعة "المطبعة الهادية" التى أُنشئت سنة ١٨٣٣م ومن قبل ذلك "مطبعة مدرسة الطب" التى أُنشئت سنة ١٨٢٧م واستمرت عشر سنوات ثم أُدمجت فى مطبعة بولاق ٠

وتوالى بعد ذلك إنشاء المطابع حكومية وأهلية ، وإن بقيت مطبعة بولاق أكبر المطابع إنتاجاً ، وقد قامت فى سنة ١٨٦٧م بنشر عدد من الكتب العربية فى معرض باريس ، وقد أثنى رواد المعرض على طباعة هذه الكتب ٠

وكان من فائدة الطباعة وآثارها على الأدب، أنها أمدت الكُتّاب والأدباء بالثقافات على اختلاف ألوانها ، كما شجعتهم على الكتابة وإصدار ما فى حوزتهم من مخطوطات نادرة ، وأفكار عالية٠

وكانت بإحيائها للكتب القديمة ذات أثر فعّال فى العودة بالأدب الى عصوره الزاهرة ٠

وبالإضافة الى ذلك هَذّبت اللغة، وصفّتها من التصحيف والتحريف، وأبعدت عنها الخطأ ٠

****

٢ـ الصحافة والمجلات الأدبية :

لعل ما أسهمت به الصحافة فى النهضة الأدبية الحديثة كان من أقوى العوامل فى بعثها، وتقدمها، ذلك أنها كانت منهلاً عذباً، ورده الناس من مختلف الطبقات ، ونهل منه الجاهل ، وعل منه المتعلم ، فرفعت بذلك غير قليل من أمية الأميين ، وزادت غير قليل من ثقافة المثقفين ٠

ولهذا يقول شاعرنا شوقى فى الصحف :

تسيرمسير الضحى فى البلا
د، إذا العلم مزّق فيها السُّدَفْ
وتمشى تُعلّم فى أمةٍ
كثيرةٍ مَنْ لا يَخُطُّ الألفْ

وقد كانت الصحف فى أول إنشائها رسمية حكومية ، تعنى بنشر أخبار الدولة وقوانينها ، ولكنها ما لبثت أن تحولت الى متحف للعلوم والآداب والسياسة والاجتماع ، فكان يجد فيها كل صاحب رغبة رغبته ، بل ربما أفاد منها القارئ ما لم يتشوق الى قراءته من فنون العلم والأدب ، ثم يعاود القراءة فإذا هو سائر فى الطريق ، واصل الى الغاية ، فيصبح عالماً أو كاتباً أو شاعراً ، وما قصد - فى أول الأمر أن يكون واحداً من هؤلاء ، ولكنها الصحافة التى اقتحمت عليه عزلته ، وسارت به فى اتجاه لم يكن يعرف عنه شيئاً أو يرغب فيه ، فلا غرو أن الصحافة تخلق النوابغ .

وقد كان أثر الصحافة عظيماً فى الأدب المصرى الحديث ، فكم كاتب ، وكم شاعر نشأ فى ظلها ، وتزود من غذائها الروحى ، ما أعانه على التفوق ، هذا فضلاً عن تأثيرها فى لغة الأدب وأسلوبه وموضوعاته ، فقد كان الأديب يفكر ، ويطيل التفكير ، ويتخير موضوعه تخيراً ، ثم يُكِبُّ على دراسته وتمحيصه ، فإذا أخذ فى صياغته تخير له اللغة الجزلة ، والأسلوب الفخم وربما أبعد فى استجلاب المحسنات البديعية والصور البيانية ، لكن الصحافة بما تتطلبه من سرعة فى الكتابة ، كانت تُعْجِلُه عن تخير الموضوع والتأنق فى صياغته ، وبذلك مال الكُتّاب ، بل الشعراء الى الواقعية ، كما مالوا الى السهولة فى الأداء ، والإقلال من الزينة اللفظية.

وقد كان من أثر الصحافة: كثير من الكتب الأدبية التى كانت. أولا. مقالات ، ثم جُمعت فى كتب ، ومنها : حديث الأربعاء لطه حسين ، وفيض

الخاطر لأحمد أمين ، وتحرير المرأة لقاسم أمين ، ووحى القلم للرافعى ، وذلك كله بفضل تلك المنافسة الشريفة التى دارت رحاها بين الأدباء والمفكرين ٠

- **أما تاريخ الصحافة في مصر** :

فموجز القول فيه: أن المصريين لم يكن لهم علم ولا معرفة بهذا الفن قبل الحملة الفرنسية ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى أرض مصر سنة ١٧٩٨م كان لها صحيفتان تصدران باللغة الفرنسية ، وحاول الفرنسيون إنشاء صحيفة ثالثة ، واختاروا لها اسم "التنبيه" وجعلوا أحد المصريين مشرفاً عليها ، وسواء أظهرت هذه الصحيفة ، ولم يصلنا أى عدد منها ، أم كانت مجرد مشروع هُيئ وأُعدَّ له . كما يرى بعض المؤرخين للصحافة . فقد كان مجرد التفكير فيها الى جانب ما عرفه المصريون من أمر الصحيفتين الفرنسيتين دافعاً قوياً الى أن يفكر أصحاب الرأى فى مصر الى إصدار صحيفة ٠

وقد فعل ذلك محمد على باشا ، فأنشأ (جورنال الخديوى) و (بريد مصر) وصحيفة(العَشْريات) ثم تحول الجورنال الى (الوقائع المصرية) فى سنة ١٨٢٨م ثم ظهرت الصحف الرسمية فى عهد إسماعيل ، وبجوارها صحف أهلية ، أنشأها أفراد من الشعب ، ومن الأولى :

"روضة المدارس" التى ظهرت فى سنة ١٨٧١م وكان يكتب فيها كبار رجال العلم والأدب ، وكانت سياسية علمية أدبية، تصدر مرتين فى الأسبوع ومجلة " اليعسوب "صدرت فى سنة ١٨٦٥م ، وهى أول مجلة ظهرت فى العالم العربى ، ثم ظهرت على التوالى ، "نزهة الأفكار" لعثمان جلال ، و" الأهرام " لبشارة تقلا سنة ١٨٧٤م ، و"جريدة مصر" لأديب اسحاق سنة ١٨٧٧م ٠

obeikandl.com

ثم جاءت الحركة الوطنية فكانت لها صحف أدت لها أَجَلّ الخدمات للنهضات السياسية والاجتماعية ، والأدبية فى مصر ٠

وكان منها ثلاث صحف أصدرها خطيب الثورة العرابية : عبد الله النديم ، ثم صحيفة " المؤيد " للشيخ على يوسف ، وقد كانت من أوسع الصحف انتشاراً ، ومن أكثرها خدمة للقضايا الوطنية ، وكان من كتّابها : صاحبها ، وهو أديب كبير والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل وكثير من أمثالهم٠

ثم صدر "اللواء" لمصطفى كامل، وكان لا يقل شأناً عن المؤيد، ثم توالى ظهور الصحف اليومية والأسبوعية الى يومنا هذا٠

وقد كثرت. كذلك. المجلات التى خدمت النهضة الأدبية فى أوائل هذا القرن ومنها : الهلال ، والمقتطف ، والسياسة الأسبوعية لمحمد حسين هيكل ، والبلاغ الأسبوعى لعبد القادر حمزة ، والرسالة والرواية لأحمد حسن الزيات ، وأبوللو لأحمد ذكى أبو شادى ، والثقافة التى أصدرتها لجنة الترجمة والنشر ٠

وفى عهد الثورة ظهرت مجلة "الرسالة الجديدة" وأُعيدت مجلتا "الرسالة" و"الثقافة" بعد اختفائهما ، ولكنهما لم تعيشا طويلاً ٠

٣ـ البعثات والترجمة :

ظل الشعب المصرى قروناً طويلة منعزلاً عن العالم الخارجى ، ولم يكن له اتصال بأوروبا إلاّ ما كان من زيارة بعض الأفراد لغرض التجارة ، أوالعبور الى أقطار أخرى٠

أما الاتصال الثقافى: فكان مبدؤه الحملة الفرنسية، وإن كان رجال الحملة الفرنسية لم يختلطوا بالشعب المصرى اختلاطاً كلياً ، فقد كان الشعب

المصرى غاضباً عليهم وظل طوال السنوات الثلاثة الأولى . التى أقامها الفرنسيون فى مصر. يقاومهم ويثور عليهم .

أما الاتصال الحقيقى بالغرب : فكان عن طريق البعثات والترجمة ، وقد رأى محمد على فى أواخر حكمه، أن ينهض بالبلاد، لا سيما فى النواحى العسكرية والعلمية، ورأى أن من أقوى العوامل فى ذلك: أن يأخذ عن الغرب علومه وفنونه ، ففكر فى إيفاد بعثة ، كان أكثرها من غير المصريين وكان بعضهم من طلبة الأزهر، وقد سافرت هذه البعثة وعدد أفرادها أربعة وأربعون طالباً الى باريس سنة ١٨٢٧م، وكان إمامها طالبًا أزهريًا، له فيما بعد أعظم الأثر فى النهضة الحديثة ، وهو رفاعة الطهطاوى ، وقد عاد أفراد البعثة مزودين بثقافة واسعة فى مختلف الفنون من طب وهندسة وفلك وغيرها من العلوم ٠

أما رفاعة فكان رجلاً قوىّ الملاحظة، فألف كتاباً سمّاه "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز "وقد وصف فيه المجامع العلمية ، ودور الكتب، والمتاحف العامة ، ومعاهد العلم ، والمعالم المهمة فى باريس، ووصف فيه ثورة مهمة شعبية فى باريس، ففتح هذا الكتاب أعين المصريين على أشياء كثيرة ، كانوا يجهلونها ٠

ثم توالت البعثات الى فرنسا ، والى غيرها من البلاد الأوربية ، وتخصص المبعوثون فى فروع العلم والأدب ٠

بل أنشأت مصر مدرسة فى باريس كان ناظرها أحد رجال البعثة الأولى ، وكان الغرض من إنشائها: تعليم المبعوثين اللغة الفرنسية، وقد ضمت فى أول إنشائها نحو أربعين طالبًا، وكان بعضهم من أبناء محمد على وأحفاده، وقد أُغلقت هذه المدرسة سنة ١٨٤٨م ٠

وكان لهؤلاء المبعوثين آثاراً عظيمة فى النهضة الحديثة بما ألّفوا من كتب ، وبما ترجموا من آثار الغرب فى العلم والأدب، وإن تأخرت الترجمة فى الأدب عن الترجمة العلمية، وبما أوجدوا من حركة علمية أشرفوا عليها ٠

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نشطت الترجمة ، وتُرجم كثير من القصص الرفيع، أمثال: (آلام فرتر) و(روفائيل) وقد ترجمها المرحوم أحمد حسن الزيات ، و(مرجريت جوتيه) التى ترجمها أحمد ذكى ، وكثير غيرها ٠

كما تُرجمت أشعار مما نظمه كبار الشعراء الغربيين ٠
وقد أفاد الأدب من هذه الترجمة في أسلوبه ، وأفكاره ، ومعانيه ٠

٤ اتساع نطاق التعليم والعناية فيه بالدراسات الأدبية :

أقبل القرن التاسع عشر ولا يزال الظلام مخيماً على التعليم فى مصر ، كما هو مخيم على كل شىء فيها ، فالمدارس التى اتسعت وازدهرت فى عصر المماليك ، خفتت أضواؤها فى العصر العثمانى ولم يبق إلاّ الأزهر الشريف ، يرسل بصيصاً من نور يضئ جوانب الحياة العلمية إضاءة ضعيفة شاحبة، ومن خلفه الكتاتيب فى القرى والمدن ، تُحفّظ الناشئة القرآن الكريم ، وربما جاوز بعضها ذلك الى تحفيظ بعض المتون العلمية ، وبجوار الأزهر: المساجد الكبرى فى القاهرة ، وغيرها من كبار المدن يجلس فيها العلماء ليفقهوا الناس فى دينهم ٠

ومثل هذه الدراسة لا تعين على خلق نهضة أدبية إلاّ بمقدار ما تحفظ من علوم، على أن اتجاه الأزهر - آنذاك - فى تعليم العلوم اللسانية لم يكن يساعد على تحقيق الغرض من دراستها، فقد كانت تدرس لذاتها لا للغرض المطلوب منها وهو تذوق الكلام البليغ ، والقدرة على صوغه٠

ولما استقرت الأمور لمحمد على باشا ، أخذ فى إنشاء المدارس، وبدأ بالدراسة العسكرية ، ثم بدراسة الطب ، وهذه الدراسة وإن كانت علمية ، إلاّ أنها كان لها أثر فى النهضة من ناحيتين :

الأولى :

الاتصال بالثقافة الغربية عن طريق الأساتذة الذين استقدمهم محمد على للتدريس ، وعن طريق الكتب التى تُرجمت.

الثانية :

ما اقتضته ترجمة هذه الكتب من تطويع اللغة العربية لأنْ تُعبّر عن كثير من مفردات اللغة وتراكيبها ، وأن يحاولوا تذوقها لتكون ترجمتهم صحيحة ووافية.

ثم أنشأ محمد على مدارس ابتدائية وخصوصية (ثانوية) فى أنحاء القطر المصرى ، وجعل التعليم فيها اللغة العربية، وقد خبت هذه الشعلة فى عهد عباس الأول وسعيد ، ثم عادت الى التوهج فى عهد إسماعيل ، فكثرت فى أيامه المدارس ، وظفر الأدب خاصة بمدرسة دار العلوم التى عنيت بالدراسات اللغوية والأدبية ، وتخرّج فيها جماعة من كبار الكُتَّاب والشعراء كان لهم أثر بالغ فى النهضة الحديثة .

وفى أوائل القرن العشرين أُنشئت الجامعة المصرية ، وكانت كلية الآداب إحدى كلياتها ثم دخل إصلاح على الأزهر ، فقسمت الدراسة العالية فيه الى ثلاثة كليات : كلية اللغة العربية ، وقد تعاونت هاتان الكليتان مع دار العلوم على تخريج دارسين ملمين باللغة العربية وآدابها ، وكان منهم الكتّاب والشعراء والخطباء .

obeikandl.com

ولعل التنافس البعيد المدى الذى كان - ولا يزال - بين هذه الكليات الثلاث أثراً محموداً فى النهضة الأدبية الحديثة ٠

وفى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين، أنشئ معهد للدراسات العربية العالية يتبع الجامعة العربية، وقد حضر فيه كبار علماء اللغة والأدب، من مصر وغيرها من الأقطار العربية، ونشرت لهم المطابع كثيراً من الكتب الأدبية واللغوية ٠

على أن العناية بالدراسات الأدبية لم تكن وقفاً على الكليات المتخصصة فيها، بل أخذت المعاهد الأزهرية الثانوية التابعة لوزارة التربية والتعليم ، وبعض الكليات الأخرى بنصيب من هذه العناية، فلا غرو أن يكون التعليم، والعناية فيه بالدراسات الأدبية إحدى الدعائم القوية التى نهضت عليها الثقافة الأدبية الحديثة ٠

٥ - <u>الأزهر الشريف</u> :

لا يستطيع واحد من الناس أن ينكر دور الأزهر بمعاهده وجامعته فى صيانة الفكر الإسلامى، والتراث الأدبى من الضياع، حتى فى السنين التى انقطعت منه الدراسة فيها ٠

- <u>نشأته</u> :

دخل جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى مصر فاتحاً فى سنة ٣٥٩هـ الموافق ٩٧٠م وفى أول ليلة وضع أساس القاهرة ، حيث شيد قصرين عظيمين ، ثم وضع أساس الجامع الأزهر وقد استمر العمل فيه سنتين ، وقد أقيمت أول جمعة فيه فى التاسع من رمضان لعام ٣٦١هـ٠

وكان الغرض من إنشائه: أن يكون مسجداً تقام فيه الصلوات ، ويُدعى فيه للمذهب الشيعى ، ولكن ما لبث أن تحول الى معهد للدراسة ، وكان أول من حاول جعله معهداً هو (يعقوب ابن كلِّس) وزير العزيز بالله الفاطمى ، وكان أول عمل قام به فى هذا الشأن أنه بنى داراً بجواره لجماعة الفقهاء، وكانوا خمسة وثلاثين فقيهاً، وأُلقيت فيه الدروس الدينية واللغوية فى عام ٣٧٥هـ الموافق ٨٩٦ م ، وظلت الدراسة قائمة فيه حتى جاء صلاح الدين الأيوبى ، وكان سُنياً يعمل على نشر مذهب أهل السنة ، فأغلق الجامع الأزهر ليمنع دراسة المذهب الشيعى وظل مغلقاً أكثر من قرن من الزمان ، ثم عادت فيه الدراسة لكن على أساس المذهب السُّنى فى عهد الظاهر بيبرس وظل كذلك حتى الآن ٠

وكانت الدراسة فيه فى بادئ الأمر مقصورة على العلوم الدينية واللغوية ، ثم درست فيه علوم الفلك والحساب والطب والجغرافيا ٠

وفى القرن العشرين أُدخلت على مناهجه بعض الإصلاحات ، فدرست فيه العلوم الحديثة ، كالرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ثم درست فيه علوم التربية ، وعلم النفس ، واللغات الأجنبية ، وهذا أمر معروف ومشهور ٠

فضله في صيانة التراث الاسلامى والعربى :

مرت قرون طويلة على الأزهر ، واختلفت عليه الأحداث ، وتتابعت الدول وهو يؤدى رسالته فى خدمة الدين واللغة ، ويبذل قصارى جهده فى أداء هذه الرسالة ، ولم تنل منه الأحداث ، ولم يُثنه عن غايته ما اعترض طريقه من عوائق كان أهونها جديراً أن يثبط العزائم ، ويُوهن القوى ٠

ففى العهد الفاطمى ظل ما يقرب من قرنين من الزمان (٣٦١ - ٥٦٧هـ) معهداً لدراسة علوم الدين واللغة ، وكان يدرس فيه كبار العلماء ، بل لقد دَرَّس فيه

وزير المعز كتاباً ألّفه بنفسه، وبجانب علوم الدين كان يُدرس الأدب والمنطق، وتلقى فيه المحاضرات فى بعض أيام الأسبوع التى تكون مجالاً للمناقشة والدراسة.

أما فى العصر الأيوبى ، فعلى الرغم من إبطال صلاح الدين الخطبة فيه ، والاستعاضة عنه بمساجد أخرى ، فقد كان له الأثر البيِّن فى التعليم ، فقد اهتم صلاح الدين وخلفاؤه بإنشاء المدارس ، والإنفاق عليها ، ولكنه استعان بعلماء الأزهر للتدريس فيها ، وكانت العلوم التى تدرس فى هذه المدارس هى العلوم التى تدرس فى الأزهر : والعلوم الدينية : من فقه ، وتفسير ، وحديث ، والعلوم اللسانية: من نحو وصرف ، وبيان ، وبديع ، والى جانبها كانت تدرس الرياضيات والمنطق ٠

ثم كانت كارثة سقوط بغداد فى المشرق ، على أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ ، وضعف حكم العرب فى الأندلس ، وبعد قليل من سقوط بغداد استولى المماليك على الحكم فى مصر ، وكادت اللغة العربية تذهب ، كما ذهبت لغات أخرى ، فقد أحرق التتار الكتب، وقتلوا العلماء ، وعطلوا المدارس ، وقد أصبح المصريون محكومين بقوة من غير جنسهم ، ولكن الله هو الذى تكفل بحفظ دينه ، والإبقاء على قرآنه ، فهيأ الأزهر ليكون المكان الذى يشع منه نور الدين واللغة ، فقد لجأ العلماء الفارون من وجه التتار ، والعلماء المهاجرون من الأندلس الى الأزهر ، وكلهم وجد فيه محطاً لرحاله ، ومكاناً صالحاً لأداء رسالته ٠

وقد حبب الله الى سلاطين المماليك أن يميلوا الى العلم،وأن يقربوا العلماء، ويغدقوا عليهم، فتخرج فى الأزهر علماء أجلاء، لا نزال ننعم بما خلّفوه من دراسات شاملة، أمثال: جمال الدين ابن منظور (صاحب لسان العرب)، وبهاء الدين السبكى، صاحب كتاب عروس الأفراح، وابن هشام المصرى صاحب الكتب الكثيرة فى النحو، وشهاب الدين القلقشندى بكتابه: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٠

وفى العلوم الدينية نبغ كثير من العلماء ، منهم الحافظ بن حجر شارح البخارى ، وجلال الدين السيوطى صاحب المؤلفات الكثيرة المعروفة ٠

وقد بقى الأزهر ـ كذلك ـ منارة هادية حين أطبقت الظلمات فى العصر العثمانى ، واضطهد العثمانيون اللغة العربية وحاربوها ومع ذلك تغلبت اللغة العربية على كل الأحداث بفضل الأزهر ورجاله ، وقد تخرج فيه فى هذه الفترة المظلمة جماعة من العلماء ، وكان لهم كبير الأثر فى بناء النهضة العلمية والأدبية الحديثة ، أمثال الشيخ محمد الخراشى ، والشيخ عبد الله الشبراوى ، والشيخ أحمد الدمنهورى ، والشيخ حسن العطار ، ولقد كان الأخير من المثقفين ثقافةً واسعة ، وكان حريصاً على مخالطة الفرنسيين يأخذ من علومهم ومعارفهم ، وهو أول من نادى بالإصلاح والتجديد فى العالم العربى٠

ولعل شوقى قد قصد الى هذه الفترة من تاريخ الأزهر حين قال فيه :

ظلماتٌ لا ترى فى جُنحها
غيرهذا الأزهرالسمح شهابا

قَسَماً لولاه لم يبق بها
رجلٌ يقرأ أو يدرى الكتابا

حفظ الدين مليّاً ومضى
ينقذ الدنيا فلم يملك ذِهابا

ـ أثر الأزهر في بناء النهضة الأدبية الحديثة:

كان دور الأزهر فى تلك العصور التى سادها الظلام والفساد والفوضى : حفظ اللغة العربية وآدابها ، أما دوره فى بناء النهضة الأدبية والعلمية الحديثة : فهو دور المؤسس لبنيانها ، الرافع لأركانها ٠

لقد كان علماؤه فى أول هذه النهضة روادها ، والباعثين لها ، وكان بعضهم داعية الى التجديد ، وبعضهم مدرساً فى المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على ،

وبعضهم حرروا أوائل الصحف وفريق سافر فى بعثات الى أوربا ثم عادوا فكانوا بناة النهضة ، وطلائع الإصلاح ، ومنهم : رفاعة الطهطاوى ، ومحمد على البقلى ، وعلى مبارك ، ثم أُنشئت مدرسة دار العلوم فكان من الأزهريين طلبتها وأساتذتها ، وكثرت الصحف ، فكان كثير منهم من المحررين والمصححين فيها ، وبُعثت الكتب القديمة فكان منهم مصححوها، والمشرفون على نشرها ٠

والحق أن الأزهريين كانوا يعملون فى كل مجال يخدم اللغة العربية ، وينهض بآدابها، وحسبنا الشيخ محمد عبده فى مجال إصلاح الأزهر والنهوض باللغة العربية ، وسعد زغلول خطيباً مفوهاً ، ومن رجال الأزهر الأدباء: طه حسين، وأحمد أمين ، والزيات ٠

ومن لم يتعلم فى الأزهر نهل من ينابيعه ، وأخذ من علمائه ، كما أخذ أحمد تيمور باشا صاحب المؤلفات الكثيرة فى اللغة عن الشيخ حسن الطويل ٠

وقد قال شوقى معترفاً بفضل الأزهر عليه [١] :

ماضرّنى أنْ ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلّمتُ السُّرى
لا والذى وكلَ البيان إليك لم
أكُ دون غايات البيان مُقصّرا

والنهضة الأدبية لم تقم.فقط.على إحياء التراث اللغوى والأدبى،ودراستهما، ولكنها كانت . أيضاً. نتيجة من نتائج التقدم السياسى والتقدم العلمى ، وكان للأزهريين فى هذين المجالين دورهم الكبير ، فليس ينكر أحد أن الأزهر كان الملجأ للمصريين منذ أُنشئ . يرد عنهم عادية الظالمين [٢] ٠

---

[١] ـ الشوقيات ، الجزء الأول / ١٤٢ ، دار مصر للطباعة (بدون تاريخ)

[٢] ـ يراجع : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، د٠محمد كامل الفقى، والأزهر قلعة النضال السياسى ، للدكتور محمد رجب البيومى ٠

يقول شوقى فى علماء الأزهر :

كـانوا أجلّ مـن الملـوك جلالـةً

وأعـز سـلطاناً وأفخـم مظهـرا

زمنُ المخاوف كان فيه جنابهم

حرم الأمانِ، وكان ظِلّهُمُ الذّرا

وقد ظلوا كذلك يقودون كل ثورة ضد الظلم وضد الغاصبين ، قادوا الثورات التى قامت ضد الفرنسيين ، واشتركوا فعلياً فى ثورة عرابى ، فكان منهم الممهدون لها ، وكان عرابى نفسه من طلاب الأزهر ، وقادوا ثورة ١٩١٩م ، وكانوا خطباءَها والمصطلين بنارها ٠

وربما خفّت جهود الأزهريين فى النهضة العلمية، ولكن التاريخ يذكر:أن الفلك والرياضيات والطب كانت من العلوم التى دُرِّست قديماً فى الأزهر ، وأن علماء أزهريين ألّفوا رسائل فى هذه العلوم ، قبل أن تنشأ المدارس الحديثة، فللشيخ الدمنهورى رسالة اسمها "عين الحياة فى استنباط المياه" فى الجيولوجيا، ورسالة عنوانها "القول الصريح فى علم التشريح" فى الطب ، وكتاب : "عقد الفوائد فيما للمثلث من فوائد" فى الهندسة ، وللشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٨٣٤م رسالة فى "كيفية العمل بالإسطرلاب".

والجبرتى المؤرخ نبغ فى العلوم الفلكية والرياضية ، ولكنه عُنى بالتاريخ ، ثم كان رجال البعثات من الأزهريين أطباء ومهندسين ٠

ولاشك فى أن أى تقدم فى ناحية من نواحى الحياة يخدم اللغة العربية ، بما يتيح لها من أسباب الحياة والتقدم ، ويخدم الأدب كذلك ؛ لأنه يخلق الخطباء والكُتَّاب والشعراء الذين يكونون ـ عادة ـ نتاجاً لهذه النهضات السياسية والعلمية والاجتماعية ٠

٦ـ الجمعيات الأدبية والعلمية والسياسية :

وهى الجمعيات التى قامت بدور أصيل وفعّال فى حركة الحياة الحديثة بما قدمته للناس من غذاء أدبى وعلمى كان له الأثر الكبير فى ازدياد الوعى ، وانتشار الثقافة ومنها :

-جمعية المعارف : التى أسسها عارف باشا ١٨٦٨م ٠

-الجمعية الخيرية المصرية، التى أسسها وجيهان مصريان : العلايلى ، والناصورى، ولما قامت ثورة عرابى تفرق القائمون عليها كالنديم٠

-جمعية مصر الفتاة : وقد أسسها عبد الله النديم ، وإبراهيم اللقانى ١٨٧٥م ٠

وكان دور هذه الجمعيات يتمثل فى التثقيف العلمى ، ونشر النشاط الأدبى والخطابة والسياسة وكانت الوسيلة هى الكلمة ، والكلمة هى المعبرة عن هموم الحاضر ، وتتطلعات المستقبل ٠

٧ - **التمثيل وأثره** :

كان لإدخال التمثيل فى مصر دور فعال وبارز فى تنشيط حركة الوعى والثقافة، وقد تم ذلك عقب افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م ٠

فقد أُفتتحت دار الأوبرا المصرية برواية "عايدة" وبعد ذلك توالت فرق المسرح إنشاءً وعملاً ، وكانت من أشهر الفرق :

"أبو نضارة"التى أسسها يعقوب صنوع سنة ١٨٧١م،والفرقة السورية بالإسكندرية، وقد أسسها يوسف خلاّط وسليم نقّاش، ثم انتقلت بنشاطها الى دار الأوبرا بالقاهرة ١٨٧٨م ٠

وتتضح قيمة هذا العامل فى : تطويره للأداء اللغوى للكلمة، والعبارة عن طريق ما يؤلف ، ويترجم من روايات للجمهور ، كما يتضح فى تشجيعه للأدباء على الكتابة فى هذا الفن ٠

هذه أقوى وأهم العوامل والأسباب التى ساهمت وساعدت فى بناء النهضة الأدبية والعلمية فى العصر الحديث، وأيقظت الوعى القومى لدى الجماهير التى كانت ترزخ تحت نوم عميق ٠

****

obeikandl.com